



لم يعد في الأوراق مكان لكتابه قصص الألم، ولم يعد معنا ألوان تلون لون الدم النازف لترسم لوحة مشابهة، كل اللوحات صارت واقعية، وكل القصص المقهورة صارت متحركة حية! فجرنا الحزين يخرج على استحياء بعد ساعات من الآن، لكنه يلتحف عباءة العزاء، ويحمل فوق كتفه هموم المقهورين المنكسرین من الضعفاء، لقد تغير لونه من أثر الأحزان حتى قارب لونه لون المساء!

إن الكلمات لتأبى التعبير والألفاظ تمنع عن البيان، ولأن الطرق مسدودة بلون الدم، بلون الألم، والجدران تهدمت، بعدها نخرتها معاعل الألم واشتكى من جلد العدو وضعف الصديق

ولكأن الشوارع السابحة في الظلام الدامس تاهت أسماؤها، وتشابهت، فالكل يؤدي لمثوى واحد هو مثوى النزف..

قبل قليل استمعت إلى تصريحات الطبيب عن الشهداء والأطفال في حلب وهو يقول: إن الجثث وصلت محترقة ومقطعة بشكل كامل، مما صعب التعرف على هوية الكثرين، وذكرت عندها مقوله عمر -رضي الله عنه- يوم لم يعرف أسماء بعض الشهداء.. فما زاد أن قال: ولكن الذي أكرمه بالشهادة يعرفهم!

فيما عمر بن الخطاب يا فاتح الأقصى، ومذل الظالمين وناشر العدل والحرية والكرامة: هل أتاك نبأ الأمة بعد قرون؟! عرض مستباح، ودين مضطهد، وأمل مفتال، وطفل ينتحب، ومسجد يتهدم!

يعلوني الألم، ويتملكني ال欺ه، ويحيط بي الخجل، وأنا أكتب كلماتي تلك، بينما المستضعفين يكابدون عنة نزف الدم وتضميد الجراح، يحيطهم القصف والجوع والظلم، ولست أستطيع أن أخفف من محنتهم شيئاً!

وكما كتبت من قبل سنوات اعتذاراً أعيد فأكرر كلماته، فما هي إلا رسالة اعتذار، ولسنا للأسف نملك سوى الاعتذار.. وما أكثر رسائل الاعتذار!

اعتذار لكل طفل أصبح من يومه يتيم لا يجد أباً، وكل طفل صار شليلاً أو كسيحاً أو مبتور الأعضاء وهو في مقتبل حياته وزهرة طفولته..

اعتذار إلى كل أم ثكلى قد فقدت ولیدها، وراحت صرخاتها وسط ضجيج الصرخات..

اعتذار إلى كل حرة انتهك عرضها، ولكل أبية ساموها سوء العذاب..

اعذار لكل مريض فقد دواعه ولم يستطع الحصول عليه، فيعاني شدة الآلام..

اعذار لكل عائل أسرة قد فقد عمله ومصدر قوته، فيعاني كل حرقة إذ يرى أبناءه يتالمون من الجوع..

كل ثلاجات الموتى قد امتلأت عن آخرها، وكل المستشفيات قد امتلأت بالجراح وبالأنين.. حتى طواقي المستشفيات قد استهدفت!.. فلم يبق مكانا في ثلاجات الموتى!

مئات الشهداء وألاف الجرحى تختلط دمائهم بدماء بعض، وتختلط منهم قطرات الدم و قطرات الدمع المنهم من قلوب جميع الشعب المجرح بجراح الغدر.

كل شيء كما كان، البابات الحقود تصب جام أذاها على البيوت والطرقات، يسقط أطفال صغار، وشيوخ كبار، ونساء أرهقهن عناه الطريق..

الأمهات يظلان يبحثن عن بقايا جثث أطفالهن في كل مكان.. بجوار أطر السيارات، وأرصفة الشوارع، وأبواب الدكاكين المغلقة..

فيما أم الصغير الذي اغتالته دبابات الغل الطائفي القديم: قوله للجالسين فوق موائد المساومة أن ابنك الجميل قد قتل، وهو يلقى صرخة من حنجرته الأبية بينما يرفض الخنوع!..

ويَا صرخة الثكلى.. انتظري قليلا ليعود إليك طفلك الصغير، لابسا أحسن الثياب، اللون لون البياض، والثغر باسم مزهر، والروح ترفرف من حوله، لقد أسميناه "الشهيد"

إن المحنـة دومـا هي رحـم القـوة، وـمنطقـة ولـادة الـانتصـار، وإن آتونـ الـآلام لـتنـصـهرـ بـه الصـفـاتـ فـيـتمـيزـ طـيـبـهـاـ منـ خـبـيـثـهـاـ، فـتـنـقـىـ كماـ يـنـقـىـ الـذـهـبـ الإـبـرـيـزـ، فـلاـ يـبـقـىـ ثـمـ فـيـ الـأـطـفـالـ بـعـدـ الـمـحـنـةـ إـلـاـ صـفـاتـ الـرـجـولـةـ وـالـعـزـمـ وـلـاـ يـبـقـىـ فـيـ النـسـاءـ إـلـاـ صـفـاتـ الـفـضـيـلـةـ وـالـصـبـرـ وـالـقـنـاعـةـ وـلـاـ يـبـقـىـ فـيـ الرـجـالـ إـلـاـ الـكـرـامـةـ وـالـاسـتـعـلـاءـ فـوـقـ الـأـزـمـاتـ..

إن أظافر المـحـنةـ الـجـارـحةـ لـتـقـلـ حـبـلاـ وـثـيقـاـ يـرـبـطـ الـمـؤـمـنـ بـالـلـهـ، حـيـنـ يـرـىـ ضـعـفـهـ وـقـلـةـ حـيـلـتـهـ، وـيـدـرـكـ فـقـرـهـ وـخـورـ قـوـتـهـ، فـيـلـجـأـ إـلـىـ الـقـوـىـ الـعـزـىـ وـيـقـرـ لـهـ بـكـلـ حـوـلـ وـقـوـةـ وـبـكـلـ قـدـرـةـ وـعـزـةـ وـبـكـلـ قـيـوـمـيـةـ وـشـهـادـةـ، فـيـسـلـ شـأـنـهـ لـرـبـهـ، وـتـصـبـ حـيـاتـهـ سـابـحةـ فـيـ بـقـيـنـ رـاسـخـ وـتـوـكـلـ مـخـلـصـ.. تـنـتـظـرـ لـحظـةـ الـانـتصـارـ

لـكـ نـشـعـرـ بـمـرـارـةـ فـيـ حـلـوقـنـاـ وـحـسـرـةـ فـيـ مـشـاعـرـنـاـ أـنـاـ لـمـ نـسـطـعـ أـنـ نـقـدـمـ سـوـىـ الـحـسـرـاتـ، وـلـمـ نـسـطـعـ أـنـ نـمـسـحـ دـمـعـةـ طـفـلـ لـفـرـاقـ أـبـيـ، وـلـمـ نـسـطـعـ أـنـ نـعـالـجـ جـرـحاـ نـازـفاـ فـيـ صـدـرـ أـبـيـ صـامـدـ، وـلـمـ نـسـطـعـ تـقـدـيمـ شـرـبـةـ مـاءـ لـحـلـقـ قـدـ أـكـلهـ الـجـفـافـ، وـلـمـ نـسـطـعـ حـتـىـ أـنـ نـشـارـكـ فـيـ جـنـازـةـ الشـهـداءـ.

إـنـ اـهـتـمـامـنـاـ لـأـمـرـكـمـ لـيـسـ شـأـنـاـ خـاصـاـ بـنـاـ، وـبـكـاءـنـاـ عـلـىـ آـلـمـكـمـ لـيـسـ مجـرـدـ عـاطـفـةـ عـابـرـةـ فـيـ صـدـورـنـاـ، وـحـرـصـنـاـ عـلـىـ خـيرـكـمـ لـيـسـ فـضـلـاـ كـامـنـاـ فـيـنـاـ، إـنـمـاـ اـهـتـمـامـنـاـ بـكـمـ وـاجـبـ شـرـعيـ فـيـ أـعـنـاقـنـاـ، وـبـكـاؤـنـاـ إـنـمـاـ هوـ عـلـىـ جـرـاحـ أـجـسـادـنـاـ الـيـ إـذـ اـشـتـكـىـ مـنـهـاـ عـضـوـ تـدـاعـىـ لـهـ سـائـرـهـاـ بـالـحـمـىـ وـالـسـهـرـ، وـحـرـصـنـاـ عـلـىـ خـيرـكـمـ هوـ حـرـصـ النـفـسـ عـلـىـ خـيرـ ذـاتـهـ..

المصادر: